العلاقات الدينية بين الأمم لتحقيق تعاون عالمى

بقلم الدكتور منصور فهمى بك

المدير العام لدار الكتب المصرية

لست أعلم من نفسى أنى ممن تفقهوا فى أصول الديانات وتواريخها ، ولست ممن نالوا فى ذلك إجازات وشهادات . على أنى وإن كنت من غير المتخصصين فى دراسة الديانات ونظرياتها فهأنذا أشهد آثارها الواضحة فى أوضاع الجماعات وأعمال الناس . وكأن الديانات ليست نظريات فلسفية وعقائد أو أعمالا يختص بها فريق دون آخرين فحسب ، بل هى وجود اجتماعى ظاهر يتهيأ من أقدار مشتركة من العلم والعمل والعقائد يشيع بين الناس جميعا وعلى هذا فمباح لأمثالنا ممن يؤمنون بأثر الدين ويعتقدونه أن يدلوا فيه بآرائهم .

وقبل الدخول فى صميم الموضوع أشير إلى ما انتهج من الخطط فى معالجته . فمنها أنى تجنبت الاستقصاء على نحو ما تنزع إليه الفلسفة فى طلب الأصول الأولى أو الغايات البعيدة وتوخيت أن أعتمد على المشهود الواقع من الآثار القريبة للديانات ، فلم ألجأ مثلا إلى النظر فى مختلف المظاهر الدينية فى الشعوب البائدة أو البدائية ، بل تلمست الدين ومظاهره فى نفوس المعاصرين المتبادلى النشاط والمسعى .

كما أنى لم أتعمق فى البحث على نحو مايريده الاجتماعيون والفلاسفة ، فيتساءلون أكانت النزعات الدينية أسبق من النزعات الخلقية ، أم أن هذه الأخيرة كانت أسبق من الأولى . وحسبى فى هذا الشأن أن أعتمد على أن هناك صلة تقوم بين الأخلاق الجارية والديانات المعروفة ، وأنها جميعا تتعاون فى طائفة من التوجيهات .

وعلى الجملة فحسبنا فيما نحن بصدده من البحث أن ننظر إلى الدين من نواحيه الاجتماعية الجارية العملية ، لا من نواحيه الفلسفية أو اللاهوتية .

وكذلك نفترض بعد أن تبينت لنا طريقة البحث التى نسير عليها أن كلا منا يسلم ببعض أصول تعين على ما يقصد إليه من تحقيق تعاون عالمى على أساس العلاقات الدينية . فنقرر :

١ — أن الإنسان كما هو مدنى بطبعه ، هو كذلك دينى بطبعه ، بمعنى أنه ينزع إلى الإيمان بقوة لاحد لها تحيط بكل مايقع عليه تصوره من وجود محدود ، وأن صلة الإنسان بما لا حدله تولد فى خافية وجدانه شعورا بالعبودية يتيقظ عند المناسبات . وفى يقظته يجتمع

الناس على أسلوب من الخضوع والرجاء يزيدهم يقينا بضعفهم وحاجتهم إلى عون القوة العظمى التى لا تدركها العقول والأوهام . ولعل فى هذا الشعور المشترك بين الناس جميعا أول ينبوع نفسى لمجارى الديانات واختلاف ألوانها . كما أنه من المسلم به أيضا أنه ما وجدت جماعة من البشر ترابطت فى نظام إلا آمنت إيمانا بأسلوب فى حياتها جعلت منه دينا وعقيدة .

٢ — ثم نقرر مبدأ ثانيا وهو أن سير التيارات الدينية الكبرى كان فى حركات التنقل من الدوائر الضيقة المحدودة إلى الدوائر الواسعة الشاملة ، بمعنى أن طائفة من العقائد كانت فى بداءتها محصورة فى قبائل وأمم معينة ، ومع تتابع الأجيال وتطور الفكرة الدينية اتجهت هذه العقائد للجمع بين مختلف الشعوب ، والسيطرة فى البقاع المتباينة ، حتى يبدو أن أكثرية من سكان الأرض يدينون لإله واحد هو رب العالمين ، وأن النزوع الدينى يتحول إلى نزوع عالمى واسع .

٣ — أما المبدأ الثالث فهو أن العقل البشرى سيظل بحكم طبيعته وحدوده قاصرا عن إدراك بعض المسائل وفهمها ، كالأصول الأولى أو الغايات النهائية لظواهر هذا الوجود وفق سنة لا تتبدل ولا تتغير . وقد يدعو ما هو مشاهد من انسياق الظواهر فى سننها إلى التساؤل عن كنه هذا الانسياق وخصائصه ، ولماذا كانت هذه الخصائص لبعض ظواهر دون غيرها ، ولماذا كان سعى الانسان ونشاطه يتصلان دائما بأهداف ومثل يقدر المرء أن الخير فى بلوغها . وليس فى نظام العلم ومألوفه أن يحكم على خيرية هذه الأهداف أو شريتها حكما مطلقا ، بل إن تقدير ذلك راجع لمنطق العواطف والوجدانات العميقة ، ووحى الحياة العملية السائرة التى يطاع وحيها فى كل شىء ، حتى فى التضحية بالنفس لمصلحة عليا غير مصلحة الأفراد ، فان المرء يحس بالحاجة لأن يستمد لشعوره ولحياته العملية من توجيهات أخرى غير توجيهات الواقع العلمى ووحيه ، وتلك هى توجيهات العقائد والأديان والإيمان .

٤ — ثم نقرر بعد ذلك مبدأ رابعا ، وهو أن جمهرة واسعة من الناس فى هذا العصر الذى نطلق عليه عصر التقدم ، وهو عصر غنى بأنواع من الخيرات والنعم المادية والمعنوية أقول : إن هذه الجمهرة ترى جديرا بمن يعيش فى هذا العصر أن يسعى للانتفاع بمعانى هذا الخير والجمال والاستمتاع بها جميعا ، وأن ما هو منبث فى الوجود منها يغرى بشحذ الهمم والعزائم لحسن استغلالها ولمقاتلة عناصر الشر من مظاهر البؤس والألم والقبح والفقر التى طالما تعطل مباهج الحياة .

وزيادة على ما تقدم نقرر أن الحياة الاجتماعية الراهنة ما زالت تمعن فى أساليب التعقد والتشعب ، فتبعث على ازدياد الرغبات والحاجات ، وأصبحت وفرة المكتشفات الآلية والكيميائية والفنية تمد فى ذلك مدا ، مما أدى من جهة الى انتقاص أوضاع البساطة

وجمالها وخيرها ، ومن جهة أخرى الى الاعتزاز بهذه المكتشفات والأدوات التى أغرت بعضها بالزهو والعتو وهيأت لبعض آخر الاستسلام والحقد الكمين ، وكل ذلك يشيع القلق والاضطراب فى نفس الجماعات و بين مختلف الشعوب ، مما ينتهى بقلق نفسى واضطراب لا يتفق مع أساليب الطمأنينة العامة المرجوة والتعاون للسلم .

و بعد أن قدمنا هذه المبادئ التى أقدر أنها موضع اتفاق بين الكثيرين يصح أن نلم إلمامة سريعة ببعض الأصول والأقدار المشتركة بين الأديان مما أحسبها دعائم ترجى لبناء صرح من التعاون العالمى فى سبيل الخير والسلام .

فمبدأ الترابط فى المودة والتعاطف المشترك بين الناس على اختلاف أجناسهم ومشاربهم الدينية قد قرره الاسلام فى جلاء، وفرضه على متبعيه من غير لبس ولا إبهام ، فجاء فى كتاب الله فى سورة الممتحنة هذه الآية الكريمة : (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ) .

وفى هذه الآية حض واضح على مسالمة المسالم، وربط أواصر المودة معه فى البر والخير . وفيها مقابلة العدوان بأوجه الدفاع إخمادا لنار العداوة حين تشتعل ، وردعا للمعتدى عن غواية الاعتداء . و إذا كانت المسالمة يقويها الدين الإسلامى مهما يكن دين المسالم ومذهبه ، فأنعم إذن وأكرم بهذا المبدأ ليكون ركازا لتعاون عالمى بين المسلمين وغيرهم . ولم ينفرد الإسلام عن الديانات الكبرى بهذا المبدأ السامى ؛ فإن فى النصرانية واليهودية من المبادئ ما يساير دين الإسلام فى ذلك ويجاريه . فإذا كانت هذه الديانات تتآزر بعضها مع بعض فى مبدأ أساسى كالذى قدمت ، فان الفلسفة والأخلاق تتعاون كذلك مع هذه الديانات فى هذا المبدأ الإنسانى الجليل .

ويلوح لى أن كل ما يطلب الآن هو تيسير جريان مثل هذا المبدأ المقبول فى جميع الديانات الراقية وتعميمه بين الشعوب ، فيتعاضد الدينيون على اختلاف مللهم فى الوسائل الصالحة لنصرته ولتحقيق أثره . وليس بنا الآن من حاجة إلى الإسهاب فى عرض ما يتخذ من الوسائل . وسنشير إليها فيما بعد فى فرصة آتية .

وفى الديانات كلها كذلك أصل مشترك آخر لا يقل جلالا عما تقدم ، يتمثل فى فكرة السلام . فاننا نجد أن الإسلام أشار الى معانيها فى نيف وستين موضعا من القرآن ، عدا ما ورد فى الآثار الصحيحة ، فقد جعلت تحية المسلمين فى صلواتهم وتواددهم مقرونة بذكر

السلام ، واتخذ رب المسلمين لفظ السلام من أسمائه الحسنى ، وفى ذلك أوضح دلالة على ما لهذا المعنى من مكانه فى دين الرسول العربى . وكما أن هذا مقرر عند المسلمين هو مقرر كذلك فى الديانات الأخرى ، لا سيما المسيحية ، فى وضوح وجلاء .

وكذلك عنيت الديانات الكبرى برعاية الوحدة الأولى التى تتكون منها الجماعات والشعوب ، فكلها تقدر ما لنظام الأسرة من شأن وخطر ، وما يتصل به من حرمة وقداسة. فقديما قررت الديانة اليهودية — وهى أولى الديانات السماوية المعروفة — مكانة لأسرة . فمن أظهر الوصايا فى هذا الدين تبجيل الوالدين ، والاحسان إليهما ، وصون الأعراض ، والمحافظة على أساليب الطهر فى الحياة الاجتماعية ، وتقدير البنوة والإكبار منها لتقوية الجماعات ، وما إلى ذلك من أمور تتصل بمكارم الأخلاق الاجتماعية . وكل ما تقرره اليهودية فى ذلك من الاتجاهات تؤيده النصرانية ويؤيده الإسلام .

المبادىء المادية :

ولو تقصينا ما ترمى إليه المبادئ الشائعة فى الديانات لوجدناها تلتقى عند مصلحة المجموع وتقديمها على مصلحة الفرد . فكأنها تتآزر فى إعلاء كلمة الإيثار على كلمة الأثرة ، ومن ثم كأنها توجه الأفراد الى نواحى الخير الدائم الآجل على ما يخلب الأبصار من نواحى الخير البراق العاجل . وكأن السياسة العامة للأديان جميعا تتمثل فى صورة العقيدة بالخير ، وتحويل هذه العقيدة الى إيمان يدفع أهله الى سعى منظم فى هذه الحياة الدنيا وفق دستور روحى مقدس ، واذا صح فى الذهن أن تتمثل الديانات فى هذه الصورة التى قدمت فإنا نقرر أن لها عدوا لدودا فى النزعات والمذاهب المادية على اختلاف أنواعها وصنوفها منذ أقدم العصور الى يومنا هذا.

وإنى لا استطيع فى هذا المقام المحدود أن أعرض المذاهب المادية فى اختلاف صورها ، وحسبى أن أشير اليها إشارة سريعة . فليست النزعات المادية التى نقصد الى ذكرها هى ما يقصد اليه الفلاسفة وعلماء الطبيعة من تعليل الظواهر الكونية والحالات النفسية بأسباب تتدرج فى هذ الكون المشهود ، وينشأ من تواصلها وتقاطعها بعض ما يتمثل لمدار كنا وحواسنا ، كأن نعلل ظاهرة كونية بتآلف فى الكهارب والطاقات ، أو أن نعلل حالة من حالات النفس بنقص أو زيادة فى إفرازات كيميائية ومادية فى غدد الجسم وتفاعل عناصره . بل المقصود بالمادية هنا نزوع الأفراد والجماعات نزوعا يعتمد على غرائز الأنانية والأثرة ، وينشط بهم إلى إشباع الشهوات الوضيعة بوسائل الكفاح والغلبة ، على اعتبار أن ليس وراء هذا الوجود المحسوس المشتهى وجود آخر إلا الأوهام ، وأنه فى سبيل الواقع المشاهد المستطاب يناضل الناس ما استطاعوا النضال ، وينازلون ما استطاعوا النزال ، ليظفر كل لنفسه بالمطلوب ، ويخرج من المعمعة المهلكة بما يحسبه المحبوب . وفى هذه الحالة يبعد عن تصور الشخص المادى وخياله كل ما تصبو اليه نفوس المثاليين من معنويات .

ولقد وجدت هذه الصورة الإنسانية وهذا النزوع النفسى المادى فى مختلف العصور . فكانت فى حضارة اليونانيين والرومانيين وفلسفاتهم حين كان ثم دعاة لاقتناص اللذات المادية المواتية . وكانت فى عصور الحضارة الإسلامية حين استهتر المستهترون من الشعراء بالآداب والفضائل . وكانت كذلك فى حضارة الغربيين قديما وحديثا حين نادى منهم من نادى بمبادئ الكفاح والغلبة ، وتهوين قيم الفضائل . وعلى الجملة كانت بين من نطاق عليهم اسم المستهترين والإباحيين . وفى هذا الضرب من ضروب المادية خصومة صريحة للديانات جميعا إذ لا تطيق المادية قيود الدين ولا تستسيغ تكاليفه فى الأصول والفروع . وما قد يقال فى ذلك عن عداوة المادية للدين يصح أن يقال فى عداوتها للأخلاق ، لأنه إذا كان رأس الحكمة على ما يقوله الأخلاقيون الدينيون مخافة الله فبينهات ما بين المادية وبين هذا الخوف من الله . وإذا كانت الأخلاق عالقة بحياة الجماعات فبينهات ما بينها وبين من يؤثرون انفسهم وأنانيتهم على ما يطلب للجماعات والشعوب .

وفى هذه الحالة التى تظاهرفيها أشباح المادية والدينية يتهيأ ميدان متسع لحرب أزلية وتدافع فيه سجال بينهما (وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ...)

ويبدو لنا أنه لا محيص عند طغيان المادية لأهل الأديان — وهم بطبيعتهم من أهل المثل العليا — أن يتكاتفوا لمقاومة هذه التيارات الإباحية التى أصبحت شديدة الجريان والانتشار فى هذا العصر ، وزاد بذلك بطشها الفتاك بآداب الإنسانية ومعنوياتها .

أسباب انتشار المادية :

وقد ترد قوة التيارات المادية فى هذا العصر إلى عدة عوامل منها : ضعف السيطرة التى كانت للديانات على نفوس الناس ، وذلك لضعف شخصيات المتزعمين الدينيين ، وفساد أساليبهم فى التوجيهات الروحية وعجز وسائلهم فى أداء رسالتهم . ومنها : تقدم العلم ووصوله بطرائقه الفعاله إلى الأهداف التى ينشدها حين كشف الغطاء عن كثير من أسرار الوجود ، واستخدم هذا الكشف لمصالح الإنسان ورفاهيته المحسوسة . ومنها : تدانى بقاع الأرض بمختلف وسائل النقل والاستعمار الحربى والتجارى واستغلال الأموال بحيث تسللت الأساليب المادية من بعض الشعوب لبعض آخر ممن كان يدين بغير المادية و يتربى فى عيشه من الفطرة السليمة الخيرة . ومنها : ضعف تأثير المعنويات فى حياة مستغرقة بالحركة ومحاطة بشتى وسائل الكفاح والتزاحم مما يشغل الناس عن الاطمئنان إلى التفكير والتأمل فى المعانى السامية .

وفى الحق أن ما يبدو لأول وهلة أنه تقدم عظيم للإنسانية حين توافرت لها أساليب التعمير والنقل الآلى والفنون المثيرة للشهوات ، ليس يدل على التقدم إلا من ناحية واحدة :

تلك ناحيـة الوجود المـادى فحسب . أما من ناحيـة إنسانية الإنسان ونزوعه إلى الخير والإيثار والسلام، وعلى الجملة من ناحية اعتداده بالتسلح المعنوى فقد يبدو أن الإنسانية لم تتقدم فيها تقدما يتناسب مع تقدمها المـادى ، بل ربما يلوح أن الناس تأخروا إذا قيست منازعهم فى هذا العصر بالعصور التى نشأت فيها المبادئ الكبرى وقامت فيها الدعوات الدينية البريئة الطاهرة . و إن مجرد التصور لهذه الحالة من تقدير التأخر المعنوى قد أزعج الكثيرين من المفكرين وأهل الوجدان من نيف وربع قرن ، أى فى فترة الزمن الذى يشمل مبـادئ الحرب الكبرى وامتداداتها فى الحرب الحالية، فشعروا بحاجة ماسة إلى وضع أساليب أخرى فى الحياة لتقويم شر ما هم فيه من الضجر والقلق النفسى وما تتعرض له الإنسانية من الشدائد ولم يجدوا لذلك أفضل من إنعاش ما ضعف من العوامل الروحية والدينية فى نفوس الناس، ونشر فضائلها فى الشعوب نشرا صادقا يتحقق فى الأعمال لا فى النظريات والأقوال .

ولم تكن الدعوة إلى عصبة الأمم والرغبة فى توجيه الثقافات توجيها ينسجم مع مبـادئ العدالة والسلم إلا إرهاصا لحياة جديدة خيرة أسلم من هذه الحياة نرجو أن تزدهر . وللدينيين بطبيعة عقائدهم عمل كبير فى نشر المبادئ التى تحقق هذه الحياة المنشودة إذا هم عمـلوا بجد وصدق وتعاون صحيح .

أخطاء أهل الأديان :

و إنا لا نبرئ الدينيين من تفريط مكن لخصوم الأديان والمستهترين بمبادئها ألا يقبـلوا عليها فما أضعف فى الزمن الأخير من هيمنة رجال الدين على النفوس أنهم لم ينعشوا الفضائل الدينية فى حياتهم الخاصة حين ينبغى أن تكون هذه الفضائل حية ماثلة فى مسعاهم وأعمالهم . فليس من الحق أن ينادى رجل الدين بالقناعة وهو جاد فى أساليب الطمع. وليس من الحق أن ينادى بالصدق والصراحة وهو يلوذ بالكذب والنفاق. وليس من الحق أن يجهر بالتقوى وهو غير برىء من الإثم ، ولا بالتسامح والسلم وفى نفسه الانتقام والعدوان . وكثيرا أسفاه من يخرط فى زمرة الدعاة الدينيين الروحيين دون أن يحققوا فى أنفسهم مطالب الدين العليا كما ينبغى أن تتحقق ، ومن ثم قلت الثقة بكثير من رجال الدين ، حتى تزعزعت الثقة بالدين نفسه .

ومن أخطاء الدينيين كذلك أنهم جعلوا من التفاصيل الفرعية للديانات مثارات للخلاف والفتن فكانت شيع وكانت مذاهب ونحل مما كون الحزازات وضغائن النفوس . فإذا كان هناك من التفاصيل ما يجوز أن يفترق وجهات النظر وفقا لتعدد الأمزجة واختلاف العقول والأذواق، أفلا يكون فى الأصول الأولى مدعاة للتجمع والتعاون لما فيه الخير الشامل العميم . لقـد يكون من الحكمة الأزليـة أن تختلف العقول فى الجزئيات لتظل أداة التفكير مشحوذة متوثبة لا تكل ولا تصدأ . لكنه ليس من الضرورى أن يكون مثل هـذا

الاختلاف مدعاة للخصومة والقطيعة . ولماذا لا يتردد فى نفوس أهل الديانات جميعا مثل قول الصوفى ابن العربى :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
و بيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب دينى و إيمانى

وما دمنا فى صدد الإشارة إلى ما نحصيه من اخطاء الدينيين فلا يسعنا إلا دعوتهم عن سبيل الأصول الأولى للديانات ليسيروا المحبة بين الناس ، وليستفيدوا لذلك من هالة القداسة الدينية التى مازالت لهم ولازال لها سلطانها وأثرها فى النفوس . وربما ترتب على اتحاد رجال الدين أن تحل مشيئة الله على الارض لتكون بين الناس المحبة وليحل بينهم السلام ، فتنسجم النظم السياسية المتضاربة ، ويتوجه الأفراد فى أداء واجباتهم لخدمة الشعوب ، وتجتمع الشعوب لخدمة الانسانية جميعا .

واجب الدولة :

وكما أن على الدينيين والمقدرين لقيمة الدين فى الحياة الاجتماعية والإنسانية واجبا فى تيسير نفوذه وتوجيهاته الروحية ، كذلك يلوح لى أن على الدولة واجبا كبيرا فى إعلاء كلمة الدين .

لقد أدى التنازع بين سلطان الدين وسلطان الحياة المدنية والمادية فى بعض الأمم إلى إقصاء الدول والحكومات عن اتخاذ الدين لها شعارا . واعتمد المتشيعون لذلك على أن أبناء الأمة قد يرتبطون بشتى الروابط من آمال وآلام ومصالح مشتركة ذات وجود واقع دون أن يشتركوا فى العقائد التى لها ميادينها فى عالم النفس الباطنة وصميم الوجدان . ولذلك ترجح لديهم ألا يكون للدولة دين ترعاه ، وليرع كل فرد من افراد الأمة ماهو مكنون فى ضميره . وقد يعترض على هذا الرأى بأن الدين — و إن كان منبته الأول فى العقيدة الخافية — فان الإيمان به له أثره الواضح فى الحياة الاجتماعية الظاهرة حين تصطبغ المعاملات والأعمال بما تلونها به العقائد . فالأخلاق الجارية ، وآداب السلوك ، كل ذلك يتأثر تأثرا كبيرا بما يتصل بدواخل النفس ، وقد ينم الظاهر فى مجارى الحياة عن الكثير الخفى فى الوجدان . وفى الإسلام حض دلى أن يكون نشاط المرء ومسعاه منسجما مع عقيدته ودينه حتى جاء فى الأثر " الدين المعاملة " .

وأغلب الظن أن كل أمة فيها أكثرية من أهلها يدينون بعقيدة واحدة . وليس من ضير على الدولة ، تدين بدين الأكثرية وترعاه ، وأن تجعل من واجبها رعاية دين الأقليات ، لأن دين الأقلية مهما اختلف عن دين المجموع الأكثر فانهما يلتقيان فى الأصول التى تستوجب الرعاية والتقدير .

واذا كانت بعض الأمم المتمدنة قد أخذت بمبدأ اللادينية فى الدولة ، فان مصر قد ظلت متمسكة بأن يكون دين دولتها الرسمى الإسلام . وهو يولى عقائد الأقليات حسن الرعاية بحكم تعاليمه السامية . ففى المأثور عن الرسول العربى قوله : " من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة " . وزيادة على ذلك فان الاسلام يعترف بالديانات السماوية المنزلة ، ويقدر ما جاء فى التوراة والانجيل من الهدى ، ويحض على اتباع ما فيهما من إرشاد . وحسبنا دليلا أن نذكر تلك الآيات : (قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ) وكذلك قوله تعالى : (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ) ، وقوله : (وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) ، وفى كل هذه الآيات وكثير غيرها دليل على أن الاسلام فيه من مبادئ المحبة والتواد والمجاملة لأهل الأديان جميعها ما ينتفى معه الشك فى تقديره لمسالمة الناس والتعاون معهم فى الخير والمعروف .

أسباب الخلافات :

على انى وإن كنت الممت بما يصح أن يكون معمدرا لتلاقى الدينيين وتآخيهم فى المبادئ السامية لا أستطيع أن أغفل ما حدث وما يجوز أن يحدث من أسباب الانقسام والاختلاف بين اهل العقائد المختلفة . وفى زعمى أن منشأ الخلاف لا يمكن أن يكون مرده الأكبر أصول الديانات أو فروعها ، وإنما قد يتصل مرده على الأرجح باستعدادات من وضعوا موضع الزعامة والقيادة للدينيين ، فالكثيرون منهم كما أشرت إلى ذلك لم يتخلقوا بالأخلاق الكريمة التى يستطيعون أن يدفعوا بها أسباب الأحقاد والخصومات . ولعل أول الواجبات على المتزعمين فى أمور الدين لخدمة الحركة الدينية نفسها ولخدمة الإنسانية أن يروضوا أنفسهم على الأعمال التى تنسجم مع سمو العقيدة ، فاذا تحقق لهم أن رفعوا مستوى أنفسهم كان من اليسير عليهم أن ينزلوا إلى الميادين الاجتماعية حشدهم الروحى أفرادا وجماعات لتتفاضل رسالتهم فى مختلف الناس ولتثمر الدعوة الى التعارف لا إلى التناكر ، وتعلو راية التوفيق على راية التفريق . ومنذ القديم فى نشأة الجماعات البشرية نزعت النفوس إلى تقديس أمور ورفعها عن مستوى الحقائق والأشياء المألوفة ، بل أصبحت نفوس الناس التى مستها الطاف التقدم والمدنية المصفاة لا تقبل على أمر من الأمور حتى يكون مجللا بهالة قدسية علوية ، وليس من مستودع أوفى من الديانات لتستمد منه طابع القدسية وحرارة الإيمان . ويبدو لى ان الإنسان مهما طالت حياته لا غنى له عن فترة من الزمن تطمئن فيها نفسه بالإيمان ، وليس

تقرب إلى الإيمان ويدنيه من القلوب أكثر مما يرجى فى عالم الغيب ومما يبدو فوق العقول لا تدركه العقول .

ففى الديانات إذن ما يثير فى النفس عوامل الإيمان ، ولا تستقيم الحياة الاجتماعية إلا بدواعى الإيمان . فتيارات الحياة الاجتماعية المتلاحقة المتضاربة قلما توصل المرتاب المتردد ، وقلما تدنى الأنانى المتشائم من برد السلامة ، لكنها تحمل المطمئن على أمواجها والمتفائل المستبشر المتوكل على الله الراضى بقضائه إلى شاطىء التوفيق . ولقد أصاب " ديكارت " أبو الفلسفة الحديثة حين لم يجعل فى نفسه للشك سبيلا حيال أصول الدين ومبادئ الأخلاق ، فى حين كانت طريقته التشكك المعمن فى مسائل الكونيات .

ولقد أجرى الدين الإسلامى قداسته إلى أكثر من جزئيات الحياة العملية وأوصل فيها بذلك قبسا من حرارة الإيمان ، وتلك مزايا ذكرها له «أوجست كومت» كبير فلاسفة الواقعيين .

وفى الحق أن الديانات حين تلتقى فى الإيمان بالأصول العليا ، وفى الشخوص إلى العظمة اللانهائية ، وحين تتجه أعمال الإنسان الى هذه العظمة فإن هذه الأعمال تكسب ألوان التعاظم والتسامى ، ومن ثم يصبح الدين والإيمان عملا ويصبح العمل إيمانا ودينا .

ولعلنا فى الموقف الذى نجهر فيه بأمانينا فى تعاضد الأديان السماوية لمكافحة شرور المادية وتغليب النزعات الروحية والمعنوية ، لعلنا نقدم الاستبشار ونرجح التفاؤل فالزمن مرات ونفوس الناس متهيئة لتلك الدعوة .

وإنى فى خاتمة القول لا أتجاوز ساحة التفاؤل لو رمزت لما فى نفسى بما يذكر فى أساطير الاولين من نجو خمس وعشرين قرنا فى فلسفة الفرس ودياناتهم حين تمثل صورة من صور الكفاح بين المادية والدينية .

فلقد قدر هؤلاء الاقدمون أن الإله أو رمزه مصدر الخير والنور والروحانية كان هو الاصل القديم الأزلى الأول ، لكنه بعد حين ارتاب فى نفسه الخيرة فتولد عن ارتيابه " أهرمن " رب الشر والظلام والمادية حين كان خلق الدنيا فلازم إله الشر خلقها ، " وأحاط بها كما يحيط سواد الظلمة بلألاء الضياء . ووقف هذا الإله الأخير موقف المضاد المكافح لمعانى الخير التى تنبعث عن " أورمزد " كما تقاوم الظلمة اشعة النور .

ثم تمثل هؤلاء الأقدمون حياة الكون المحدود تمر فى أدوار أربعة ، ففى الدور الأول كان حكم الخير والنور ، وفى الدور الثانى تنازع النور مع الظلام والخير مع الشر بأسلحة متعادلة وكانت الحرب بينهما سجالا . أما الدور الثالث فكانت الغلبة لإله الشر " أهرمن " حين تكاثرت أباليسه وشياطينه وقواه الجهنمية . لكن فى الدور الرابع الأخير قد تغلب إله النور ، وترجح جانب الخير على الشر ، وبعث الموتى من القبور مطهرين من خطاياهم ، وتقدم " أهرمن " خاضعا تائبا لأورمزد وانطوى الشر منهضوما فى جوف الخير ، ودرجت الظلمة فى مدراج النور .

ولعل العالم بدعوته الروحية المقبلة يغلب الهدى على الضلال ، ويحقق الغلبة لأورمزد على اهرمن ، ويعلو على الظلمة الضياء .

منصور فهمى